خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٠٢٦/٤/٢٤

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

في الخطبة الماضية تكلمت عن أسوة النبي ﷺ الحسنة انطلاقا من أرفع معايير صدقه ﷺ وتعليمه المؤمنين وهدايته، واليوم أيضا سأحدثكم عن الموضوع نفسه. فكم كان النبي ﷺ يريد أن يرفعنا إلى معايير الصدق الرفيعة، فعن ذلك هناك رواية عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ". (صحيح مسلم)

فلاحظوا كم هذه العادة متفشية في الناس، وهذه السيئة موجودة في بعض أبناء الجماعة أيضا، ويكتب إلي بعضهم أن فلانا تصرف بكذا وكذا، وعند تقصي الحقائق يظهر أن ما قاله ليس صحيحا. وعندما يقال له من قال لك ذلك؟ إذ لا يصح ما قلت، يقول قد سمعت ذلك من أحدهم. فهؤلاء يثيرون ضجة في العالم لمجرد أن سمعوا أمرا من شخص ما. فليفكر هؤلاء أن النبي ﷺ قد وصفهم كاذبين.

ثم هناك رواية عن السيدة عائشة رضي الله عنها تقول مَا كَانَ خُلُقٌ أَبْغَضَ إِلَى صحابة رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْكَذِبِ. إذا كذب شخص أمام النبي ﷺ بقي ذلك القول عالقا في قلبه ﷺ. فكان إذا علم ﷺ أنه كذب تألم منه كثيرا وكان يشعر به ويخفيه في قلبه، حتى يعرف أنه قد تاب وأصلح، وبدأ يجتنب الكذب اجتنابا تاما.

وفي رواية عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّ لِي ضَرَّةً (أي لزوجي زوجة ثانية) فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي (أي أن أقول لها إن زوجي يعطيني كثيرا فقد أعطاني كذا وكذا مع أنه لم يعطنيه، وإنما أريد أن أزعجها وأضايقها فقط) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ". (صحيح البخاري)

فلما أنها قد قالت ذلك لتجرح مشاعر ضرتها وتزعجها، قال ﷺ إنه باطل).

قد ورد في شرح هذه الرواية أن كلمة ثوب استُخدمتْ هنا مجازا، ومعناه أن الذي يوظف الكذب والزيف فكأنه ارتدى ثوبي الكذب، إذ جعل أحدهما رداء والآخر إزارا، أي أنه كذاب من الرأس إلى القدمين.

فقد نصح ﷺ أتباعه باجتناب الكذب بكل دقة، وفي رواية عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ". (صحيح البخاري)

فكل هذه الخصال تؤدي بطريق أو آخر بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الكذب أو تفصح عن الكذب. فهذه العيوب الأخلاقية علامة النفاق. وفي ضوء ذلك يجب أن نفحص أنفسنا، لأي مدى نتلطخ بها، فهي تؤدي إلى النفاق، ومعلوم أن الإنسان لا يرضى بحال من الأحوال أن يسمى منافقا.

ثم إنه ﷺ قد حذر كثيرا من نشر الأمور الخاطئة، ففي رواية عن سَمُرَة بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا قَالَ فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ (أي كان يقص عليه مَن رأى أي رؤيا) وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ (عن نفسه): "إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي وقَالَا لِي انْطَلِقْ انْطَلِقْ فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْخِرَاهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَاهُ إِلَى قَفَاهُ. ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ (أي فعل ذلك أولا في الجانب الأيمن ثم في الأيسر) فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ الْأَوَّلُ كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُودُ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِهِ الْمَرَّةَ الْأُولى. قُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ قَالَ قَالَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ .. أَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَاهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْخِرَاهُ إِلَى قَفَاهُ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذِبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ". (مسند أحمد)

أي أنه ناشر الشائعات والأقاويل عن الناس. بعض الناس يتكلمون أحيانا لمتعة اللسان والاستمتاع فقط، أو تشويه سمعة شخص في المجتمع، أو لإلحاق الضرر بطريق أو آخر. فهؤلاء يجب أن يتذكروا أن ذلك قابل للمؤاخذة، ويعاقب الله على مثل هذه التصرفات. فثمة حاجة ماسة للخوف والاستغفار.

هناك رواية عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ رَفَعَهُ إِلَى حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا. (أي لكلٍ من البائع والمشتري خيار في فسخ البيعة ما لم يتفرقا، أي يمكن أن يفسخ أحدُهما البيع، ما داما مع بعض أما إذا تفرقا فلا يبقى لهما الخيار)

فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا". كثير من النزاعات التجارية تنشأ بسبب قول الزور، فلا يبارك الله تعالى في أقوال هؤلاء ولا في تجارتهم. فهم يتكبّدون الخسائر في الدنيا، ويُعدّون مذنبين عند الله ويستحقون العقوبة.

هناك رواية عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ عَنْهُ الْمَلَكُ مِيلًا مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَ بِهِ". (سنن الترمذي)

وفي رواية عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ[1] طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا. فَقَالَ: "مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ". (أيْ لماذا هناك بلل في الطعام، لعله حنطة أو ذرة أو شيء آخر) قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ (إذا كان المطر قد نزل عليه فلماذا أخفيته بل كان يجب أن تضع الطعام المبلل في الفوق) كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي". (صحيح مسلم)

فينبغي لأهل التجارة أن يتأملوا هذا المعيار الدقيق الذي أراد النبي ﷺ تحقيقه في المسلم. غير أنه للأسف، بات المسلمون أنفسهم مشهورين في العالم بالغش والكذب في معاملاتهم التجارية.

نحن اليوم، إذ نؤمن بالمسيح الموعود عليه السلام وندعي الإيمان الحقيقي بالنبي ﷺ، يجب أن يكون في كل قول وفعل منّا أرقى معايير الصدق، وإلا فقد قال النبي ﷺ: "من غشّ فليس منّي".

والآن أقدم بعض الأشياء من سيرة النبي ﷺ. اشتُهر النبي ﷺ بين الناس بـ"الصادق الأمين" لأنه كان دائماً متميزاً في الصدق والأمانة. وقد كتب أحد المؤلفين أن النبي ﷺ بُعث في زمن الجاهلية، ولم يأتِ قبله لقومه نذير، يعني لم يأتهم نبي، فكانوا يعبدون الأصنام والأوثان والطواغيت. وقد مُنح ﷺ في طفولته الفهمَ والحكمةَ وهو بين أهل الشرك، فلم يركن قط إلى صنم، ولم يشارك في أعيادهم، ولم يُسمع منه كذب قط. كان الناس يرونه صدوقًا أمينًا حليمًا رحيمًا، بل جاء في رواية أن الناس كانوا يتحاكمون إليه قبل الإسلام في الجاهلية.

وقد علّق حضرة المصلح الموعود ﷺ على ذلك قائلًا:

إن الشهادة الإجمالية على أخلاقه الحسنة هي تلك التي أدلى بها قومه؛ إذ لقّبوه قبل دعوى النبوة بـ"الأمين والصادق". وكثيرون في الدنيا لا يُثبَت عليهم الخيانة، وكثيرون لم تُتَح لهم الفرصة للمرور بالمِحن الكبرى، فنجحوا في الابتلاءات الصغيرة ونالوا شهادة أمانتهم، غير أن ملتهم لا تمنحهم لقبًا خاصًّا، لأن الألقاب الخاصة لا تُمنح إلا لمن يفوق غيره في صفة بعينها فوقًا بيّنًا.

فكلّ جندي في المعركة يعرّض نفسه للخطر، لكن الحكومة الإنجليزية لا تعطي كل جندي وسام "صليب فيكتوريا" كما لا تعطي الحكومة الألمانية كل جندي وسام "الصليب الحديدي". وفرنسا تزخر بالملايين ممن يشتغلون بالعلم، لكن ليس كل أحد يُمنح وسام "جوقة الشرف".

فمجرد كون المرء أمينًا صادقًا لا يُلقي ضوءًا خاصًّا على عظمته، أما أن تُلقّبه أمته كلّها بالأمين والصِدّيق فهذا أمر غير عادي. لو كان أهل مكة يلقبون شخصًا من كل جيل بالأمين والصدّيق لكان الحائز بهذا اللقب يُعدّ رجلا كبيرا بلا شك، ولكن تاريخ العرب يُخبرنا أن العرب لم يمنحوا هذا اللقب لأحد في كل جيل، بل ليس في تاريخهم الممتد مئات السنين إلا مثال واحد فريد، هو محمد رسول الله ﷺ، الذي لقبه

---

[1] صبرة: كومة

العرب بالأمين والصدّيق. فمنح الأمة هذا اللقب لشخص واحد في مئات السنين يدل على أن أمانته وصِدقه كانا في أعلى الدرجات، بحيث لا يعرف العرب لهما مثيلًا في غيره. والعرب مشهورون بثاقب نظرهم ودقّة ملاحظتهم، فما قرروا أنه نادر فهو جدير بأن يُعدّ نادرًا في العالم.

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام:

"لقد تدهورت اليوم حالة الدنيا كثيرا، حيثما تنظرون تجدون شهودا كاذبين. إن رفع القضايا الزائفة أصبح أمرا عاديا، وتُزوَّر الوثائق (لا يتورعون عن تلفيق الوثائق). كلما قالوا عن أمر شيئا تحاشوا صدق المقال. (إذا رأوا منفعة في شيء تركوا الصدق ولجؤوا إلى الكذب) فليسأل أحدٌ أولئك الذين لا يدركون حاجةً إلى هذه الجماعة، هل هذا كان الدين الذي جاء به النبي ﷺ؟ (يعني عليه السلام أنني أنشأتُ هذه الجماعة ليثبت أبناؤها على الصدق، ثم قال) لقد سمّى الله تعالى الكذبَ رجسًا، وأكّد على اجتنابه فقال: ﴿اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي عدّ الكذب مثل عبادة الأوثان. فكما يُخضِع شخص غبي رأسه أمام حجر (أي اجتنبوا هذه النجاسة كأنها من كبائر الإثم) لأن مثل الكذب كمثل وقوعكم في الرجس والعمل السيئ. فقد قال عز وجل إن عبادة الأصنام عملٌ خاطئ ونجس. وقد ذكر الله عبادة الأصنام والكذب معا، إذ كما يعرض الأحمق عن الله ويركع أمام الحجر، كذلك يعرض عن الصدق والحق ويتخذ من الكذب صنمًا لتحقيق مآربه. وهذا هو السبب في أن الله تعالى قرن الكذب بعبادة الأصنام".

اجتنبوا عبادة الأصنام فإنها إثمٌ كبير، وقول الزور يعادلها في الخطورة. وقد ضرب الله هنا مثلا بأنه كما يريد عابد الصنم النجاة من صنمه، كذلك الكاذب يصنع لنفسه صنما ويظن أنه سينجو بواسطته. وما هذا الفساد الذي وقع! فإن قيل لهم: لماذا تعبدون الأصنام؟ فاتركوا النجاسة، قالوا: كيف نتركها ولا غنى لنا عنها؟ وإن قيل لهم: اتركوا هذه القذارة والنجاسة المتمثلة في الصنم، قالوا: كيف نتركه إذ لا تقوم لنا قائمة بدونه فنحن مضطرون لقول الزور لتحقيق مآربنا؟ فيقول سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه: أيُّ شقاوة أكبر من أن يجعل المرء الكذب ركيزةَ حياته؟! لكنني أؤكد لكم أن الصدق هو المنتصر في نهاية المطاف، وله الفتح وفيه الخير.

وفي معرض حديثه عن سيرة النبي ﷺ، كتب المصلح الموعود رضي الله عنه في موضع:

فلما بلّغ زوجتَه بنزول أول وحي عليه لم تقلْ له: ما هذه البدعة التي جئتَ بها؟ وإنما قالت: "وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ". أي لا تقلق، فإن ما جئتَ به حق وصدق. ثم أخذته زوجته إلى أخيها، ورقة بن نوفل، الذي كان عالمًا بالعلوم الإسرائيلية. فما إنْ سمع من النبي ﷺ حكايته حتى قال: هذا الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام، وهو يشتمل على الأحكام والتعاليم التي تشبه ما نزل على موسى من وحي.

ثم قال المصلح الموعود ﷺ مبينا الشهادات، وقد ذكرتُ هذا الموضوع باختصار من قبل أيضا في إحدى الخطب السابقة. فقد أورد ﷺ شهادة ورقة بن نوفل آنفا ثم قال بعدها:

وكان في بيت النبي ﷺ ابن عمه الذي كان فتى يافعًا يمكن أن يكون وسيلة ناجعة للتبليغ في الشباب. فلما رأى هذا الفتى أخاه وزوجته (أي محمدًا ﷺ وخديجة رضي الله عنها) يتحدثان بجدية عن هذا الحدث الهام تقدّمَ إليه بوقار وقال: إني أؤمن بأنك صادق وأن الله هو الذي كلّمك بهذا الكلام وبعثك لإصلاح العالم.

ثم أورد ﷺ شهادة عبد سبق أن أعتقه النبي ﷺ، وقد سحرته أخلاقه ﷺ فآثر البقاء عنده ﷺ بدلاً من والديه، فلما سمع حديثًا خافتًا جاريا هنالك ورأى أمارات الهم والقلق تعلو وجهَ سيده ﷺ تقدّمَ إليه وأمسك بأهدابه وقال: يا سيدي لن يحدث إلا كما رأيتَ، وما قلتَه حق وما رأيتَه حق، ولن يخزي الله إنسانًا مثلك. (ما دمتَ صدقا متجسدا من قمة رأسك إلى أخمصي قدميك، فكيف يمكن أن يخزيك الله) بل قد آن الأوان أن يتم إصلاح العالم على يديك، فاسمحْ لي أن ألازمكم وأخدمكم.

وكان للنبي ﷺ صديق حميم وحيد (وقد أدلى هذا الصديق الحميم بشهادته) وكان لؤلؤة ثانية تربّت في الصَدَفَة نفسها. فسمع من الناس أن صديقه محمدًا قد افترى على الله ويبدو أنه قد مسه الجنون، فما كان منه إلا أن أسرع إلى بيته ﷺ وطرق عليه الباب، وقال له: أصحيح ما سمعتُ عنك؟ فأراد النبي ﷺ توضيح الأمر له، فقال: أستحلفك بالله ألا تقدِّم لي أي دليل، بل أخبرْني فقط أصحيح ما يقال عنك؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فقال أبو بكر: يا صديقي الصدوق، أشهدُ أنك رسول الله. لقد كدتَ تجعل إيماني ضعيفًا بتقديمك الأدلة. فقد رأيتُ صدقك بحيث لم أعد بحاجة إلى الأدلة. ثم قال أبو بكر ﷺ: يا صديقي، كيف يمكن أن يشكّ في كلامك مَن رأى وجهك؟

مما لا شك فيه أن المعارضة كانت أمرًا محتومًا، لأنه كما قال ورقةُ بن نوفل: "لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودِيَ". ولكن انظروا إلى قدر الله تعالى، كيف آتاه ﷻ أصحابا قبل هبوب عاصفة المعارضة. كان في مكة عالِمٌ بالإسرائيليات واحد، هو ورقة بن نوفل، فصدَّق النبيَّ ﷺ بمجرد أن سمع قصة نزول الوحي عليه. أما زوجته خديجة فبدأت تُطَمْئنه وتدعو له بعد سماع خبر نزول الوحي عليه. أما عليّ "ابن عمه" الذي كان لا يزال صغيرًا وكان شاهدًا على سموّ أخلاقه في البيت، فقدّم نفسه لنصرته وخدمته ﷺ. أما "زيد" عبده العتيق الذي سحرته أخلاقه ﷺ بعد أن شاهدَ أمانته في التجارة ورعايته للفقراء لفترة طويلة، فجعل يحلف على صدقه ﷺ. وأما أبو بكر، صديقُ طفولته الذي كان من أشراف مكة، فبمجرد أن سمع عن دعواه ﷺ صار من غلمانه وخدامه. لا شك أن هذا الإخلاص الذي رآه النبي ﷺ من هؤلاء الخدام، قد غمر قلبه بهجة وسرورا. لا جرم أنه عندما كان يسمع ضجة أهل مكة ومطاعنهم كان يبتسم ويقول في نفسه: هذا حُكْمُكم أنتم الذين لا تعرفونني، ولكن انظروا إلى حُكْم الذين يعرفونني، وكيف أنهم

وقفوا لحمايتي عن يميني وعن شمالي، ويفدونني بالأرواح. لقد سأل موسى عليه السلام ربَّه أن يعطيه وزيرًا لحمل أعبائه. (هنا يقارن المصلح الموعود رضي الله عنه في تفسير هذه الآية بين أصحاب موسى وأصحاب النبي ﷺ لذلك ضرب مثل موسى عليه السلام) أما محمد ﷺ فقد أعطاه الله تعالى بدون سؤال خمسة وزراء حملوا عنه وزره إلى أقصى الحدود. لا شك أن ورقة بن نوفل تُوفي بعد فترة وجيزة، ولكنه قدَّم على صدق النبي ﷺ شهادة لن تنمحي أبد الدهر. أما خديجة رضي الله عنها فكانت سندًا له لاثنتي عشرة سنة وقامت مع كونها امرأة بما يُخضع عينَي أشجعَ الشجعان خجلا. وقدّم زيد بعد ذلك نموذجا منقطع النظير للتضحية لعشرين سنة، وفي الأخير بيّن بإراقة دمه الزكي تحت حد السيف كيف يجب أن يكون وزراء محمد رسول الله ﷺ. أما أبو بكر وعلي فعاشا بعد وفاته ﷺ، وصارا من خلفائه وقدما صبغة فريدة جديدة للوزارة.

وقال أيضا رضي الله عنه في سياق بيان أسوة النبي ﷺ:

مِن أقوى الأدلة على صدق المدعي الصادقِ نفسُه المطهرة التي تنادي بأعلى صوتها، وتخاطب المعارضين والمؤيدين، وتقول للأجانب والمعارف، وتعلن للأباعد والأقارب قائلة: انظروا إليّ وفكّروا جيدا قبْل أن تسارعوا إلى تكذيبي، هل بإمكانكم أن تكذّبوني؟ أفلا يجعلكم تكذيبي عاطلين من جميع الوسائل التي تدركون بها حقيقة شيء من الأشياء؟ إذا عزوتم الافتراء إليّ، أفلا تسدّون بذلك عليكم كلَّ الأبواب التي تنالون بها غاياتكم المنشودة؟ إن كل شيء في هذا العالم يقتضي التدريج والتسلسل لكماله، فلا الحسنات تبلغ كمالها دفعة واحدة بغير المرور بالدرجات المتوسطة، ولا السيئات تبلغ منتهاها دون قطْع المراحل المتدرجة، وكيف يمكن أن يجري المرء ناحية المغرب ويجد نفسه فجأة في المشرق، (أي من المحال أن يجري المرء إلى جهة ويصل إلى جهة غير التي توجه إليها)، وهل يعقل أن يسير المرء إلى الجنوب ثم يجد نفسه في آفاق الشمال؟ (النبي ﷺ يقول لقومه:) لقد قضيت عمري كله بين ظهرانيكم، وكنت صغيرا حتى صرت فتى يافعا بين أيديكم، وكنت شابا ثم صرت كهلا أمام أعينكم، وقد وقعتْ سوانح حياتي الشخصية والاجتماعية أمامكم، فما مِن عملٍ من أعمالي هو غُمّةٌ عليكم، وما مِن قول من أقوالي هو خافٍ عنكم، ثم هل منكم مِن أحدٍ يستطيع أن يقول إنني كذبتُ مرةً، (هذا ما يعلنه النبي ﷺ يقول هل فيكم أحد يستطيع أن يقول إنني كذبتُ مرةً) أو ظلمتُ، أو خدعتُ، أو زوّرتُ، أو هضمتُ حق أحد، أو أردت السيادة، أو سعيت للحكم. لقد اختبرتموني في كل موطن، وسبرتم غوري في كل حال، فلم تجدوا قدمي إلا راسخة على جادة الاعتدال، وألفيتموني بريئا من كل زيف، حتى نلتُ لقب الأمين والصدوق مِن قِبل الأصدقاء والأعداء على السواء. كنتُ عندكم إلى الأمس أمينا وصدوقا وبعيدا عن الكذب والزور كلَّ البُعد، وفِدًى للحق، بل كنت مفخرة للصدق والسداد، وكنتم تثقون بي في كل أمر وتجعلون رأيي على الرأس والعين، فما هذا الانقلاب الذي حدث فجأةً أنْ أصبحتُ اليوم شرَّ من كل شرير وأحطَّ من كل منحطّ (بمجرد دعوى واحدة). ما كنتُ أفتري على إنسان من قبل، أما اليوم فقد أصبحت مجترئا حتى

على الافتراء على الله تعالى. هل تجدون في نواميس القدرة نظيرا لهذا التغير المدهش والانقلاب الغريب؟ لو كنتُ عشتُ بينكم يوما أو يومين لأمكنكم القول إنه تكلّفَ وتظاهرَ بما ليس فيه، ولو كنت أقمتُ بين ظهرانيكم عاما أو عامين لجاز لكم أن تقولوا إنه فعل ذلك لخداعنا، ولكني قد عشت بين ظهرانيكم عمري كله، وقد شهدتم طفولتي، ورأيتم شبابي، ولم تكن كهولتي (أي زمن بداية الشيخوخة) بغائبة عن أعينكم، فكيف أمكن لي هذا التكلف والتزوير، وكيف تكلفت وتظاهرتُ بما ليس عندي في طفولتي التي لا تفرق بين الخير والشر، وكيف زورت وأخفيت حقيقتي في شبابي الذي يقال عنه إنه جنون ومجون؟ بالله فكّروا قليلا، فمتى كان هذا الخداع مني وكيف فعلته؟ فلو أجلتم الفكر في حياتي لوجدتموها بريئة من كل لوثة وعيب، وليس ذلك فحسب بل لألفيتموها مثالا للصدق والطهْر. فلا تدّعوا الليل رغم رؤية الشمس طالعةً، (أي ما دامت الشمس طالعة فلا تقولوا إن الليل مخيم، فإن أمري واضح وضوح الشمس في كبد السماء) ولا تشكوا الظلمة مع ظهور النور. فأي دليل تحتاجونه بعد دليلِ نفسي؟ إن نفسي هي أكبر دليل على صدقي، وأي حجة تحتاجونها بعد رؤية سيرتي؟ إن حياتي الماضية كلها أمامكم ومع ذلك تريدون مني تقديم حجة. إن نفسي شاهدة على صدقي، وإن حياتي لتدل على حقيقة نفسي، ولئن رجع كل واحد منكم إلى نفسه لشهد قلبه وعقله على أن هذا الإنسان قائم على الحق والحق قائم به، وأنه مفخرة للحق، والحق مفخرة له.

إنه ليس بحاجة إلى أدلة أخرى لإثبات صدقه، إنما مثله كالشمس البازغة التي تدل على وجودها بنفسها، (أي أن طلوع الشمس دليل على وجودها). هذا هو الدليل القوي الذي غزا قلب أبي بكر ﷺ، وهذا هو الدليل العظيم الذي سيظل يغزو دومًا قلوب الذين يحبّون الحق.

لما أعلن النبي ﷺ النبوة كان أبو بكر ﷺ في دار أحد أصدقائه، فأخبرته هناك مولاة له بأن زوجة صديقك أخبرتها بأن زوجها قد أصبح نبيا مثل ما كان موسى نبيا. فما كان مِن أبي بكر إلا أن قام لساعته وقصد بيت النبي ﷺ، وسأله عن الخبر، فقال: نعم، إني رسول الله. فلم يلبث أبو بكر أن صدّق دعوى النبي ﷺ. وقد قال رسول الله ﷺ أيضا بشأن إيمان أبي بكر ﷺ: "ما دعوتُ أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوةٌ ونظرٌ وتردّدٌ إلا ما كان مِن أبي بكر، ما عَكَمَ[٢] عنه حين ذكرتُ له".

فما الذي دفع أبا بكر ﷺ إلى الإيمان برسول الله ﷺ من دون أن يرى أي آية؟ لم يكن ذلك إلا نفسُ رسول الله ﷺ المطهرة الناطقة بالشهادة على صدقه.

وقد سبق أن ذكرتُ شهادة السيدة خديجة وعلي وزيد بن حارثة ﷺ، فكلهم شهدوا على صدقه برؤية نفسه وسيرته ﷺ. وبالجملة إن الدليل الشخصي الأول على صدق نبي هو نفسه المطهرة التي تشهد بلسان حالها على صدقه، وإن شهادتها تكون من القوة بمكان حتى تغني عن أي معجزة أو آية أخرى.

---

[٢] عكم: انتظر

يقول المسيح الموعود عليه السلام: "نجد في كلام الله تعالى أن المتقين هم أولئك الذين يمشون بحلم ومسكنة، ولا يتكلمون بكلام ينمّ عن الزهو والغرور، بل يكون حديثهم كحديث الصغير مع الكبير. علينا أن نعمل في كل حال ما فيه فلاحنا. إن الله تعالى ليس حكرًا على أحد، وإنما يريد التقوى خاصة، فمن اتقى بلغ الدرجة العليا. لم يرث رسول الله ﷺ ولا إبراهيم عليه السلام العزة من أحد. لا شك أننا نؤمن أن عبد الله والدَ النبي ﷺ لم يكن مشركا، إلا أنه لم يورثه النبوة، وإنما تشرّف بها بفضل من الله تعالى. إن أنواع الصدق الذي كان في فطرته هو الذي كان وراء نزول هذا الفضل عليه. وإن صدق وتقوى إبراهيم عليه السلام، أبي الأنبياء، هو ما جعله لا يتردد في ذبح ابنه، ثم هو نفسه أُلقي في النار".

ويقول حضرته: "انظروا إلى صدق ووفاء سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ قد تعرّضَ لأنواع الهجمات الشريرة، وكابد صنوف المصائب والآلام، ولكنه لم يكترث لها بتاتا، وبسبب هذا الصدق والوفاء أنزل الله عليه فضله، ومن أجل ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٧).

تتضح من هذه الآية أن أعمال النبي ﷺ قد بلغت من العظمة بحيث لم يستخدم الله للإشادة بها وتحديد وصفها كلمة معينة. لا شك أنه كان بالإمكان استخدام كلمات لائقة بها، ولكن الله لم يستخدمها قصدًا، ذلك لأن أعماله الصالحة فاقت الوصف. ولم يستخدم الله تعالى مثل هذه الآية بحق أي نبي آخر. كانت روحه ﷺ متحلية بالصدق والوفاء، وكانت أعماله مرضية عند الله تعالى بحيث أمَر الناسَ بالصلاة عليه للأبد شكرًا على هذه النعمة. لقد بلغ من الهمة والصدق بحيث لا نجد له نظيرا ولو أجلْنا النظر في كل طرف وصوب. انظروا إلى المسيح عليه السلام مثلا لتعرفوا مدى تأثير همته أو روحانية صدقه ووفائه في أتباعه. يعرف الجميع كم هو صعب إصلاح إنسان سيئ السلوك، وكيف يبدو تطهير المرء من عاداته الراسخة أمرًا شبهَ مستحيل، ولكن نبينا المقدس ﷺ قد أصلح آلاف الناس الذين كانوا أسوأ من الوحوش. كان بعضهم لا يفرقون كالبهائم بين الزوجات والأمهات والبنات، وكانوا يأكلون أموال اليتامى وأموال الأموات. وكان بعضهم عَبَدة النجوم، وبعضهم ملحدين، وبعضهم كانوا يعبدون أشياء أخرى. ماذا كانت حالة الجزيرة العربية؟ كانت مجموعة أديان شتى. وكان أكبر منافع هذا الوضع أن القرآن الكريم جاء حاويًا كل نوع من الهدى. ففيه تعاليم كافية للقضاء على كل عقيدة باطلة وتعليم سيء يمكن أن يوجد في العالم. فهذه حكمة إلهية عميقة وتصرفٌ عظيم إذ بعث النبي ﷺ في زمن بلغت فيه الجاهلية ذروتها، ثم جعل من أولئك الناس – الذين كانوا كالحيوانات – بشرًا متحضرين. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلِّم، إنك حميد مجيد".

نسأل الله تعالى أن يوفقنا أيضًا للتأسي بأُسوته الحسنة، وأن يمكننا من العمل بالقرآن الكريم وبأوامره ﷺ وأن يرزقنا رفع معايير الصدق إلى مراتب عليا.